شهيد إدريس

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم »
« لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى »
« سبيل الله أولئك هم الصادقون .. »

(١)

أخذت نسمات المساء تقبل مع الظلام من أطراف الأفق البعيد، فتهتز لها رءوس النخيل وأغصان الأشجار فى حيطان ذلك الحى من العرب وسط الجزيرة . . واستمع الدوسيون إلى صوت المنادى من قبل سيدهم ، فخرجوا من بيوتهم ومضاربهم يحملون المشاعل قاصدين تلك الدار المهيبة الفسيحة الأرجاء ، دار الطفيل بن عمرو الدوسى . .

وعلى رأس الدرب الممتد إلى دار الطفيل عند مفترق الطرق ، وقف شيوخ دوس وشبابها أمام صنمهم المقدس « ذى الكفين » وقد أحاطوه بمشاعلهم حتى بدا رهيبا مخيفا ، وأخذوا يدورون حوله وهم يرتجزون بأناشيدهم وأهازيجهم ، ملتمسين منـــه الرضى والعون والتأييد ! ! حتى إذا ما انتهوا من طوافهم ، أخذوا سبيلهم إلى دار زعيمهم فى أقصى الدرب ، عند ماء ذى الثرى . .

ووصلت جحافل القبيـــلة الخطيرة إلى الدار المهيبة وأخذوا يتخالون بابها الضخم ، وينتشرون فى حديقتها الغناء التى أحاطتها أسوار النخيل وخمائل الأشجار المتشابكة من كل جانب . . ووقف الطفيل ابن عمرو فى طلعته الرهيبة يستقبلهم ويحييهم ، وقد حمل فوق صدره طفله الصغير عمرو بن الطفيل . . وجلس الجميع فى حلقات متقاربة يتسامرون ويمرحون . .

ولم يمض قليل حتى خرج الخدم والعبيد يحملون بين أيديهم الألوان المختلفة من الطعام والشراب . . فصاروا يأكلون ويشربون فى نهم وإسراف وصخب ، بين دقات الطبول وعزف القيـــان . . ومن ثم

أخذوا يتبادلون الأشعار فى مدح دوس وعـــلو مجدها وفخر نسبها بين العرب . .

ولم تكن الليلة على عيشها ولهوها لتنسى رجال القبيلة ذكر ذلك الحدث الخطير فى مكة ، منذ قام فتى بنى هاشم ـ محمد بن عبدالله ﷺ ـ بدعوته إلى التوحيد ، ونبذ ما عليه قومه من عقائد ، ومحاربة تلك الأرباب المتوارثة فى قريش وفى غير قريش ، وتسفيهها فى جرأة وشجاعة وإقدام . . فأخذ القوم يتندرون بالدين الجديد ، ويهتفون من أعماقهم بتمجيد معبودهم ذى الكفين . .

وفجأة طغى على الحـــديث صوت الطفيل بن عمرو فأخذ الجميع ينصتون . .

وأخذ الرجل المهيب يتحدث بين القوم ذاكرا لهم ما سمعه من خلال رحلاته إلى مكة فى التجارة مما كان من أمر محمد فى البلد الحرام ، وما يحمله بين جنبيه من خطر على قريش ودينها ، مع ما يتحمله هو وأتباعه من نكال واضطهاد . .

ولقد كان حديث الطفيل يغرى شيوخ دوس وشبابها بالسؤال تلو السؤال عن تعاليم ذلك الدين الجديد ، وما يتحلى به أتباعه من خصال ومآثر ، وما أحدثوه من عادات وعبادات . . ولكن الرجل كان يتهرب من الجواب فى كل مرة ، حيث يجهل هو كل شىء عن هذه التفاصيل ، فلقد كان سادة قريش يبادرون باستقبال سيد دوس فى كل رحلة من رحلاته ، فينأون به بعيدا عن ذلك اللغط المنتشر فى

ربوع مكة حول دين محمد - ﷺ - ويحولون بينـــه - فى سياسة وكياسة - وبين رؤية صاحب ذلك الدين الجديد وكل من تبعه ، حتى لا يستمع إليه الطفيل فيتأثر به على مدى الزمن ، وربما آمن به فتؤمن من ورائه دوس بأسرها ، فتكون الطامة الكبرى ! ! ولقد كان القرشيون فوق ذلك يشوهون من أمر الدعوة الجديدة أمام سيد دوس ، ولكنهم ما كانوا يجرأون أن يقـــولوا له إن محمدا شاعر أو كاهن أو راهب ، فتضيع حجتهم عنده . . فإن الطفيـــل البدوى العريق ، الذى مزق سبل البيداء بأخفاف إبله شرقا وغربا ، ليعلم الفارق الشاسع بين سجع الكلام ومبانى القرآن ، كما يجيـــد فهم الرهبنة وأساليبها الأعجمية حيال ذلك اللسان العربى المبين . . وإذن ما كان من سبيل أمام قريش إلا أن تشيع فى أوصال سيد دوس أن محمدا ســـاحر . . يفرق بين المرء وزوجه ، بل وبين الرجل وعشيرته الأقربين ! !

وامتد بساط الحديث من خلال الليـــلة المرحة اللاهية ، حتى كادت تهب على الكون نسمات الفجر مؤذنة بانفراج الأفق عن وجه الصباح ، والجميع ما يزال متشبثا بمكانه من الأرض ، منصتا للسيد الدوسى الذى بدأ يلقى أوامره بأن تتجهز ركائبه وتشـــد أمتعته وبضائعه على ظهور إبله ، استعدادا لبدء رحلته إلى مكة للتجارة على رأس قافلة دوس . .

وقام الدوسيون يودعون سيدهم ، ويشكرونه على ما كان من

كرمه فى ليلة وداعه . . وساروا فى موكبه حتى بلغ ذا الكفين حيث طاف الطفيل به مرات ينشد فيها وده ، ويطلب حمايته ورعايته فى وجهته . . ومن ثم بدأ طريقه عبر الصحراء . .

وعلى وقع أقدام الإبل المنظوم وهى تضرب صفحة الأرض الهشة الناعمة ، أخذ سيد دوس يترنم بأشعاره فى مدح آبائه وأجداده ، ويردد أراجيزه فى مآثر قومه وعشيرته . . حتى إذا ماسئم ترداد شعره وقوافيه وهو يقطع الفراسخ والأميال . . هدأ إلى نفسه ساعة وجد فكره من خلالها ينطلق نحو بيت إبراهيم عليه السلام ، ويتمعن فى ذلك الحدث الأعظم ، التى أثاره ابن عبدالله ، صلوات الله وسلامه عليه ـ حربا على معتقدات أهله ، وتسفيها لأصنامهم ، المنتشرة حوله . . وبدا لسيد دوس أن كبرياءه تنهار أن تحول قريش بينه وبين محمد ـ ﷺ ـ وكان جديرا بمثله أن يكون له حكم فى شأن الرجل ، كما كان لسادة قريش فيه حكما ، وهنا عقد الطفيل عزمه على أن يستمع إلى الرسول الجديد ، ليعرف عن حقيقة أمره كل مايستطيع ، حتى إذا ماعاد إلى قبيلته بعد رحلته لم يتعثر لسانه فى الإجابة على سؤال ، كما كان يتعثر فى شأنه من قبل . . وحقيق بدستور السيادة عند العرب أن يسأل السائل عن أمر من أمور العرب فى آفاق الجزيرة وربوعها ، فيكون السيد أول من يجيب . ! !

* * *

وعند مشارف مكة كان سادة قريش يهرعون لاستقباله

واستقبال من معه من سادة دوس ، وكل همهم أن يعدلوا به عن أى سبيل يلقى فيه محمدا . . ولكن الطفيل ما كان يترك فرصة إلا انتهزها للسؤال عما كان من حقيقة الدين الجديد ، ولكنهم كانوا يفرون من سؤاله ويتعثرون . . تماما كما كان هو يفر من أسئلة دوس ويتعثر !! ولكن فرقا كبيرا بين فراره وفرارهم . . فقد كان هو يفر عن جهل ، ولكنهم يفرون عن علم وإحاطة بالكثير !!

وضاق ذرع القرشيين بأسئلة الطفيل ، وما ملك أبو جهل بن هشام أن قال :

— يا طفيل . . إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بيننا ، وفرق جماعاتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته . . إنا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه ، فلا تكلمه ولا تسمع منه . ! !

وما زال القرشيون بالطفيل يخوفونه ويروعونه حتى انقلب شوقه إلى لقاء محمد خوفا أن يراه محمد ! ! فكان سيد دوس يغدو إلى المسجد الحرام ، وقد حشا أذنيه قطنا ، حتى إذا صادفه صاحب الدين الجديد فى طوافه ، لا تصل إليه كلمة من قوله يكون فيها القضاء على وحدة دوس وشرفها بين القبائل ! !

وقرت عين قريش بما كان من أمر الطفيل ، واستيقنت نفسها ألا تصل إلى أذنه أو آذان دوس منه جملة واحدة . . حتى لقد

أطلقت عليه « ذو القطنتين » . . إلى أن كان ذلك اليوم الذى وقف فيه سيد دوس يصلى حول الكعبة ، حيث جلس سيـــد عبد مناف - ﷺ - فى حلقة وحوله بعض أصحابه .. وأخذ ﷺ يفيض من معين الحكمة العلوية ما شاء الله له أن يفيض . . فطرقت معانى الخلود اذان الطفيل - على الرغم منه - فهزت أوصاله هزا ، جعله يطيل فى صلاته وهو لا يدرى . . ليستزيد ويستزيد ! ! فكان كالمسمار فى قامته ، مطرقا لا يتحرك ، خاشعا لا يلتفت . . ومر الوقت الطويل كالبرق الخاطف . . ورآه الرسول الأعظم على حاله فأحس من أمره ما أحس . ، ثم قام من جلسته بين أصحابه وأخذ طريقه إلى بيته بأجياد .

وأخذ الطفيل يعالج من أمره بعد استماعه لرسول الله ، وهو يسلط بصره على ظهره الشريف حتى اختفى عنه ، ثم أركز رأسه على كفيه ، وأخذ يقول لنفسه :

— واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ، مايخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل مايقول . . ؟!

وأسرع الطفيل بخطاه فى الطريق خلف الرسول ، والنـاس لا يدور بخلدهم أنه يطلبه بحال ، فلم يعيروا لوجهته التفاتا .. فقد كان الطفيل فى طلعته وهيبته ، يستعين بعينيه النفاذتين ليستعيض بهما عن بطء مشيته فى متابعته ، حتى لا يضل الطريق إلى بيته .

وطرق سيد دوس باب رسول الله ، فخرج إليه الرسول هاشا

باشا ، وقد خرج النور من بين ثناياه ليختلط بمعانى الخلود فى تكريم الطفيل وإيناسه فى ساحة الحق حين يبتغيه . . وكان لقـــاء علويا ، انفتحت خلاله نفس الطفيل لتنهل من معين النبوة ماشاء الله لها أن تنهل . . ولم يلبث عظيم دوس أن قال :

— يا محمد . . إن قومك قالوا لى ما قالوا — لا أسمع لقولهم — ثم إن الله أبى إلا أن يسمعنيه ، فسمعت قولا حسنا ، فأعرض على أمرك . .

وتفجرت ينابيع الحكمة من قلب ابن عبدالله . . فقرأ عليه القرآن وعرض عليه الإسلام . . والرجل من خلال ذلك الفيض مطرق خاشع يكاد أن يغيب . . وما أن انتهى الرسول مـــن قوله ، حتى بادره الطفيل فقال :

— لا والله . . ماسمعت قولا قط أحسن من هذا ، ولا أمرا أعدل منه . . وإنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ! !

وامتلأت جوانح الرسول بحب الطفيل ، وقد أشرق له وجه فمسح صدره ، ودعا له بالخير .

ونظر الطفيل إلى جبين رسول الله فى إطراقه ، وأمعن فيـــه البصر . . وكأنه يقرأ عليه صفحات من النور ، تسطرها معانى الخلود فى الملأ الأعلى . . وما لبث أن قال :

— يانبى الله . . إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجـــع إليهم فداعيهم إلى الإســـلام ، فادع الله أن يكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه

ورفع النبي بصره إلى السماء .. وقال :

ـ اللهم اجعل له آية .. !!

(٢)

وبينما كان القرشيون يتسامرون فى حلقاتهم حول الكعبة ويتذاكرون فى عنف وحفيظة أمر محمد ـ ﷺ ـ وما أحدثه فى مكة من تحد لعقيدتهم ، وتطاول على آلهتهم .. إذ ولج عليهم صائح يصيح بأعلى صوته ، ويقول :

ـ ألا إن سيد دوس قد أسلم على يد محمد الساعة !!

واجتمعت قريش على الرجل وقد نال منها الفزع كل منال، فهى ترى أن إسلام الطفيل بن عمرو معناه أن دوسا بأسرها قد أسلمت .. وأخذ الجميع يتساءلون فى دهشة : كيف استطاع ابن عبد الله أن يجذب إليه سيد دوس فى لحظة من اللحظات ، وهو لم يجتمع به من قبل قط !؟ بل كيف يتصور أحد أن الطفيل الذى آلى على نفسه أن يحشو أذنيه قطنا طيلة مقامه فى مكة ، لكى لا تصل إلى سمعه كلمة واحدة من فم صاحب الدين الجديد .. يسعى بنفسه إلى دار محمد ـ ﷺ ـ بأجياد ، لا ليسلم له قياده فحسب ، بل ليسلم له قلبه وفؤاده ، ويكون رسوله إلى قومه ، ليأتيه بهم مؤمنين قانتين طائعين !؟

ولم يمض كثير على اضطراب القرشيين ولغطهم ، حتى هل عليهم من بعيد سيد دوس فى طلعته المهيبة ، وقد امتلأ وجهه بالنور والبشر .. فأسرعوا إليه يبتدرونه بلين وتكلف ، ويسألونه عما كان

من أمره . . فأجابهم وقد ألقى بينهم بالقطنتين من يده . . فقال :

— لقد أبى . الله إلا أن يسمعنيه . فسمعت قولا حسنا مايقوله بشر . . وأشهدكم يامعشر قريش على أنى كفرت بذى الكفين ، وآمنت بمحمد ورب محمد !!

ثم أنشد يقول :

ياذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك

ووقعت الكلمات الرهيبات على قلوب القرشيين عما . . ولكنهم لم يروا بدا من السكوت ، وإلا صارت فتنة تتجاذب أطرافها قريش ودوس ، وتكتوى بنارها القبيلتان على السواء . . وما ملكوا إلا أن يتسللوا عنه لواذا ، ويتركوه لشأنه !

وأقام الطفيل فى مكة ماشـــاء الله أن يقيم ، ثم نادى فى رجاله بالرحيل إلى ديارهم . . حتى إذا كانوا على مقربة من ديار دوس حطوا رحالهم على ثنية تطلعهم على الحـــاضر ، وتلقى بأبصارهم على مضارب القبيلة . . فلقد شاءوا ألا يدخلوا على قومهم بليل ، على عادة العرب وآدابها فى السفر . .

واختلى سيد دوس بنفسه فى خيمته ، وأخذ يسترجـــع تلك اللحظات العلوية التى قضاها بين يدى رسول الله فى بيتـــه ، حيث استضاءت له من خلالها حنايا الوجود كله ، فشاهد الحقيقة الأزلية وهى تلج إلى قلبه ، فتزيل منه أدران الشرك وأوضار الجهالة والظلام ، ثم تحلق به فى سماء التوحيد ، فلا يرى فى الكون معبودا غير الله . .

ولا يرى من فوز فى هذه الحياة إلا أن يرفع لواء الحق بين الناس ، ليخرجهم من عبادة أصنام لاتسمع ولاتبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، إلى عبادة من بيده ملكوت السموات والأرض . . وأن يبذل فى ذلك النفس والنفيس إعلاء لكلمة الله ، وتحطيما لعقيدة الجاهلين . .

واستطالت بسيد دوس ساعات التفكر فى جنح الليل ، ورأى نفسه تدفعه إلى الجلوس خارج الخيمة ، حيث السماء الصافية ترسل بضياء كواكبها على صفحة الصحراء الهادئة الممـــدودة نحو الآفاق البعيدة ، فيكسبها من جلال الله فى هدأة السكون معانى الخلود وشواهد الإعجاز . . وعادت به أحاسيسه إلى لحظاته العلوية مع رسول الله مرة أخرى ، وتذكر من خلالها دعاء النبى له بأن يكون له آية مع قومه . . ولم يلبث أن وقع نور من السماء كالمصباح ، فاستقر بين عينيه ، وأضاء له منازل دوس ومضاربهم . . والناس نيام !!

وأخذت روعة الآية من سيد دوس بمجامع الخوف ، أن يظن قومه أن النور فى وجهه مثلة أنزلها به إله دوس ، ذو الـــكفين ، لفراقه دين آبائه ومعتقدات أجداده . . ولم يملك الطفيل أن رفع بصره إلى السماء متضرعا يقول :

— اللهم فى غير وجهى ، فإنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم !!

ولم تكن إلا لحظة حتى انتقل النور من بين عينيه ، واستقر فى طرف سوطه ، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور فى ذلك السوط كالقنديل المعلق !!

وآذنت الشمس بالإشراق ، ونادى سيد دوس رفاقه فهرعوا إليه من خيـــامهم ، وشدوا أحمالهم فوق الإبل . . وساروا خلف الطفيل حتى ولجوا الحى بين استقبال دوس واحتفائهم . . كل ذلك والعيون متسلطة على السوط فى يد السيد الدوسى ، تتساءل عن الدرة الفريدة المضيئة كالقنديل فى طرفه !! وما زادت عن الظن أنها جوهرة من نفائس عكاظ ، قد ابتاعها السيد من رجال الغارات على القصور فى أرض فارس أو الروم !!

ودخل سيد دوس داره ، فاستقبله أهله فى فرح ولهفة ، وما كاد يجلس على فراشه حتى أتاه أبوه من حجرته ، فبادره الطفيل فقال :

— إليك عنى يا أبتاه ، فلست منى ولست منك !!

وقطب الشيخ جبينه ، وقد فغرفاه دهشة وغرابة ، وقال :

— ولم يا بنى ؟!

وأجابه الطفيل من فوره ، فقال :

— إنى أسلمت ، واتبعت دين محمد . .

وهزت روعة الإيمان أوصال الشيخ ، فهو لم يعهد فى ابنه غير خفض الجنـــاح معه من قبل ، وإذن فلا دافع لولده غير الصدق حيث رآه فى دين محمد - ﷺ - فلم يهادن فى سبيله حتى أباه . . ومن ثم لم يملك الأب الشيخ إلا أن ينصاع للحق حين طرق باب قلبه ولم يلبث أن قال لولده :

— يا بنى ، دينى دينك !! فأعرضه على ، أسمع وأطع . .

فقال له الطفيل :

ـ اذهب واغتسل وطهر ثيابك . .

وعاد الشيخ مغتسلا طاهراً ، فقرأ عليه ماوعاه من آيات الله ، وعرض عليه قواعد الإسلام ، فأسلم . .

وأقبلت عليه زوجته تحمل ولده الحبيب عمروا ، فما ملك نفسه أن قال لها هي الأخرى :

ـ إليك عنى ، فلست منك ولست منى !!

وتعثر لسان الزوجة الوفية وهى تنظر إليه فى عجب ، وتقول:

ـ ولم بأبى أنت !؟

وأجابها الطفيل على الفور :

ـ قد فرق بينى وبينك الإسلام ، إنى أسلمت وتابعت دين محمد !!

وافترّ فم الزوجة عن بسمة فاترة حائرة ، وطلبت منه أن يعرض عليها الدين الجديد . . فقال لها :

ـ اذهبي إلى ماء ذى الثرى ، فتطهرى منه . .

وعادت الزوجة . . فقرأ عليها من القرآن ما شاء الله أن يقرأ ، ثم عرض عليها الإسلام ، فأسلمت ، وأسلم آل بيت الطفيل جميعا .

وانتشر فى أرجاء الحى نبأ إسلام سيد دوس ، فهالهم الأمر وزلزل كيانهم .. فأسرعوا إليه زرافات ووحدانا .. واجتمعوا به شيبا وشبابا ، يحاولون صرفه عن عقيدته الجديدة ، ويهددون مكانته فيهم وسيادته عليهم . . وحسب الطفيل أن العبء هين أول الأمر ،

فراح يصبر على نأيهم حيث يدعوهم إلى دين الله ، ولكنهم تكالبوا عليه ، وصاروا يزدادون بمرور الأيام قسوة فى معاملته ، وشدة على أهل بيته الذين آمنوا معه . . وكلما ألان لهم جانبه ، كلما ازدادوا عنتا فى محاربته ، وتسفيها لرأيه ، وتعلقا بآلهتهم . . حتى غدا ذلك البيت الرفيع القدر محطا لسخرية دوس وتآمرها واضطهادها.

وضاق الطفيل بقومه ذرعا فبـــدأ يتحداهم ، ويعيب أصنامهم ، ويكفر من مضى من آبائهم وأسلافهم ، حتى كاد الدوسيون أن يقتلوه وأن يقتلوا آل بيته جميعا . .

* * *

وخرج الطفيل بليل يطلب رسول الله ﷺ فى مكة ، ويلتمس عنده الرأى والعون والقوة . . وكان لقـــاء علويا ، نسى السيد الدوسى من خلاله كل إرهاق أصابه من قومه ، فقد كان سرور النبى به هو منتهى ما كان يأمله فى هذا الوجود . .

وسأله الرسول عن حال قومه معه . فأجابه الطفيل فى اقتضاب ، وقال:

— يارسول الله ، قد غلبتنى دوس . . فادع عليهم ! !

ولكن الرسول أخذ يهون عليه ما لقيه وما قد يلقـــاه منهم ، وجعل يضرب له المثل من حياته الصابرة فى قريش ، ثم من حياة أصحابه جميعا ، وهم ماضون فى طريقهم ، لا يهنون ولا يتزعزعون . . لأنهم إنما ينصرون الله وهو لابد ناصرهم ما صبروا وما صدقوا . .

ورجع السيد الدوسى إلى قومه وقد امتلأ قوة وأملا . وازداد

عزة وبأساً ، وأخذ يدعوهم ويتحبب إليهم .. ولكن أنى للقلوب المشحونة بالشرك والجهالة أن تثوب من قريب .. وهكذا مضت السنون ، والطفيل يكافح ويجاهد .. ويصبر ويحتسب ، حتى يئس منه القوم .. وبدأ البعض يفكر فى الأمر مليا ، حيث راعه نور الحق يملأ قلب سيد دوس ، فأحاله شيئا آخر ، أقرب إلى الملائكة فى صفاء الروح ، وعلو النفس ، ونقاء السريرة ..

وكان لابد للدعوة الصادقة وهى تصدر عن القلب الكبير الصابر ، أن تجد آخر الأمر تربتها الصالحة فى قلوب الذين كتب الله لهم الهداية من خلقه ، فبدأت أبيات من دوس تدخل فى الإسلام سرا .. ولولا عمرو بن حممة ، وما بثه فى القوم من ترويع وتهويل وخوف ، أن ينقم عليهم ، ذو الكفين ، لما حجزهم جميعا عن دعوة الله حاجز ..

(٣)

وأذن الله لرسوله والذين آمنوا معه بالهجرة إلى المدينة ، وهناك لقيت دعوة الإسلام ما تصبو إليه من منعة واستقرار .. وخرج المسلمون إلى بدر ، فسطروا أعظم صفحة فى سجل الخلود ، ثم مضوا إلى أحد والخندق .. فجاهدوا جهاد الأبرار من الخالدين .. وفات الطفيل بن عمرو سيد دوس شرف الخروج إلى تلك الغزوات الثلاث .. حتى إذا كان الرسول الأعظم وأصحابه فى طريقهم إلى خيبر ، كان الطفيل بن عمرو يشق طريقه نحو المدينة ، ومن خلفه

ثمانون بيتاً من دوس ، قد آمنوا بالله ورسوله . .

ولم يستطع سيد دوس أن يمكث بالمدينة ساعة من نهار ، فلقد دفعه شـــوقه لنصرة الله وجهاد أعدائه ، إلى المضى حيث يحاصر رسول الله آخر قلعة لليهود وأقواها بالجزيرة . .

وبينما المسلمون يدكون القلعة بدباباتهم ، ويقذفون بالمنجنيق جحافل الشرك من أعلاها . . والحرب يومئذ سجال ، تكتنفها حرارة النضال بين الفريقين هجوما ودفاعا . . إذ دوت فى الآفاق أصوات دوس بالتكبير ، وهم يقبلون سراعا خلف سيدهم الطفيل وولده عمرو ، ويلوحون بسيوفهم فى الفضـاء . . ونظر الرسول إلى أصحابه وهم يتساءلون عن أمر القوم ، وما لبث أن أعلمهم أنها دوس قد أقبلت لتدفع ضريبة الوفاء للإيمان . .

واقترب الركب المهيب ، وبدا ســـيد دوس على رأس كتيبته الرهيبة وقور الطالع ، قد كسا غبار الصحراء صفحة وجهه ، فأحالها صورة من الجلال والبأس والشكيمة . . ونزل السيد الدوسى من فوق بعيره وهرول إلى الرسول فاحتضنه . . وأسرع الدوسيون من خلفه يحتضنون المسلمين بين التكبير والتهليل . .

ودارت رحى الحرب شديدة طاحنة ، والدوسيون يسطرون صحائف إخلاصهم جهادا واستبسالا . . ومن خلال الوطيس الحامى رأى الطفيـــل بن عمرو شدة أهل خيبر واستعصائهم على التسليم ، وبخاصة ذلك الركن الجنوبى من القلعة ، فقد كان من الكثرة والعزة

والمنعة ، بحيث عطل النصر على المسلمين .. فتقدم إلى رســـول الله ﷺ وقال :

— يارسول الله . . اجعلنا ميمنتك ، واجعل شعارنا (مبرور)!!

ولمح الرسول الأعظم نور البر بالعقيدة يشرق من وجه سيد دوس ، فأقره على ماطلب . . ثم نظر ﷺ إلى ولده الحبيب عمرو ابن الطفيل وقد أكبر فيه شدة بأسه ، وحرصه على الشهادة . . ورأى أن يبقى عليه ليكون درع الدعوة فى دوس بعد أبيه لو نال الشهادة .. وطلب منه أن يعود إلى قومه يستحثهم ويستمدهم ، ولكن الغلام قال:

— وقد نشب القتال يارسول الله تغيبنى عنه ! ؟

فأشرق وجه الرسول عليـــه الصلاة والسلام بالسرور ، ومسح صدر الغلام وقال :

— أما ترضى أن تكون رسول رسول الله ! ؟

ونزلت الكلمات السامية بالسكينة على قلب الغلام فقال :

— يارسول الله سمعا وطاعة . .

ووقفت دوس خلف سيدها يواجهون ذلك السيل الدافق من رماح الأعداء وسهامهم ، بصدور ملؤها الصبر والصدق والإيمان ، ويردون عليهم بضربات لاتعرف الهوادة أو الضعف . . ولم تكن إلا ساعة حتى انخذل اليهود عن مواصلة القتـــال ، ورفعوا راية التسليم . . وانتهى أمرهم إلى الجلاء عن الجزيرة كلها . . ولكن بعد أن دفع المسلمون ثمـــن النصر جراحا واستشهادا . . وبعد أن دفعت

دوس من دمائها وأرواحها هى الأخرى ضريبة الكفاح الخالص والنضال الرهيب ، فى أول موطن من مواطن البر والوفاء . .

وجمع المسلمون الغنائم ، فكانت أكواما هائلة من النفائس والكنوز ، وأسهم رسول الله ﷺ لدوس كغيرهم ، فقد كان بلاؤهم الكريم فيما أدركوه من المعركة عاملا من عوامل النصر الحاسم ، الذى دالت به دولة اليهود كلها من أرض الإسلام . .

وعاد من دوس من عاد إلى ديارهم ، يحملون إلى قومهم حظهم من العزة فى الأولى والآخرة . . أما الطفيل بن عمرو فقد أبى إلا أن يقيم مع الرسول الأعظم فى المدينة ، لا يغادرها إلا فى وفادة أو بعث أو سرية . . حتى إذا ما أذن الله لرسوله بفتح مكة ، كان الطفيل سيدا من سادات الجيش العظيم الرهيب ، لإنهاء عهد الشرك فى أخطر قلاعه وحصونه . .

وبينما الرسول ينظم جيشه لإخضاع هوازن وثقيف ، إثر الفتح ، وقريش كلها تسير فى ركابه حيث يريد ، كان سيد دوس يطلب إليه ﷺ أن يأذن له باللحاق بقومه ، ليحرق صنمهم ذى الكفين ، ويأتى بهم جميعا إلى حلبة الإيمان راضين أو مكرهين ! ! فأذن له الرسول ، فسار إليهم تسبقه أصداء النصر المبين لدولة التوحيد . . فاجتمع حوله مسلمو دوس ومن خلفهم ممن آمن معهم من باقى القبيلة . . فجمعوا الحطب وأشعلوا النيران ، ثم حملوا ذى الكفين بين أيديهم وألقوا به فيها ليحترق . . والطفيل على جمله أمام الحريق ينشد أشعاره ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك

أنا حششت النار فى فؤادك !!

ومن خلال تلك اللحظات الرهيبة ، أحاط مسلمو دوس بمن لم يسلم من قومهم ، وساقوهم إلى النيران المتأججة فى صنمهم .. ليشهدوا مصرع الوثنية فى ديارهم ، وليرددوا خلف سيدهم فى ذلك المشهد المخيف قول الله طوعا أو كرها ، جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . . ! ! ولم تكن إلا ساعة ، حتى خمدت النيران وذاب ذو الكفين ، واحتل الإيمان مكان الأوهام الباطلة فى القلوب ، ولم يبق فى دوس كلها رجل أو امرأة أو غلام ، إلا أعلن إسلامه لله رب العالمين . .

* * *

ومكث الطفيل فى قومه تسعة أشهر ، عاد بعدها مع ابنه اليافع عمرو بن الطفيل ، ليكونا إلى جوار رسول الله فى المدينة ، وليعيشا فى كنفه ما شاء الله لهما أن يعيشا ، وليظلا رهن إشارته وطوع بنانه حيال كل أمر وحال .. ولم تطل الإقامة عند مشرق النور ، فقد قضت إرادة الله أن تستأثر بالنبى الأعظم إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن دخلت الجزيرة كلها فى حوزة الإسلام . . فبكاه الطفيل وابنه مع المسلمين أشد البكاء . ثم لم يلبثوا أن رأوا رايات الشرك والكفر آن ترتفع من جديد . . فارتدت بعض القبائل الضاربة فى نجد واليمن ، وأوغلت فى العداء ، وطردت من ديارها سفراء الإسلام ، وجباة

الزكاة . . ومن ثم أعلنت حربها على أهل التوحيد ، وكتلت قواها للقضاء على المسلمين ، وسارت فى ركابها شتى القبائل جرأة على أنصار الله بعد موت رسول الله ﷺ ! !

وكانت محنة عظمى ، تقلصت معها رقعة الإسلام وانكمشت ، حتى لم تعد تتعدى المدينة ومكة والطائف وعبد القيس ! !

ونادى خليفة رسول الله أبو بكر بالخروج إلى حرب المرتدين ، فاجتمع له أحد عشر جيشا . . كان الطفيل بن عمرو وابنه عمرو على رأس دوس فى المقدمة من أخطرها وجهة وأشقها طريقا . . حيث التحم بحافل الوثنية ، وعلى رأسها طليحة الأسدى ، فألقوا عليها درسا علويا فى سجل النصر فانكسرت شوكتها ، وعاد من بقى منها إلى الإسلام راضيا أو صاغرا ليعصم دماءه ، بعد أن حز المسلمون رأس طليحة !! وجاهد عمرو وابنه خلال المعركة الحامية جهاد الأبطال الأوفياء ، وحرصا على الشهادة فلم ينالاها . . ومن ثم اتجها على رأس الجيش الرهيب إلى نجد ، فأخضعوا قبائلها ، وأعادوها كلها إلى حظيرة الإسلام . . ثم واصلا طريق النصر فى مقدمة الجيش نفسه نحو اليمامة ، حيث اجتمعت فيها رءوس الكفر فى أضخم جيش واجهه المسلمون . . وكانت محنة أخرى قضى فيها من قضى ، ولما يأت النصر رغم القتال البئيس والصمود العنيد . . ليل نهار !!

وجاءت ليلة لم يستطع فيها الفريقان المتباينان عددا وعتادا مواصلة الحرب . . المسلمون فى قلتهم وغربتهم . . وأعداؤهم فى كثرتهم

ومنعتهم . . فنام الجيشان من فرط الجهد ، استعدادا للصباح . .

ووقفت ربيئة من المسلمين تحرس جند الإسلام فى جنح الظلام . . وغفا الطفيل بينهم إغفاءة يسيرة ، قام على أثرها مكبرا مهللا يقول لمن حـــوله :

ـــ إنى رأيت رؤيا ، فاعبروها . . إنى رأيت رأسى حلق ، وأنه خرج من فمى طائر ، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها . . ورأيت ابنى عمرو يطلبنى طلبا حثيثا ، ثم رأيته حبس عنى ! !

ونظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقد فهموا من الرؤيا معانى شتى . . ولم يملكوا إلا أن يقولوا للطفيل بلسان واحد :

ـــ إنها رؤيا خير إن شاء الله ! !

ولكن الطفيل قد ابتسم ، ونظر إلى أصحابه وقال :

ـــ أما أنا فقد أولتها . . أما حلق رأسى فقطعها ، وأما الطائر فروحى ، وأما المرأة التى أدخلتنى فى فرجهـــا ، فالأرض تحفر لى فأغيب فيها . . وأما طلب ابنى لى ثم حبسه عنى ، فإنى أراه سيجتهد أن يصيبه ما أصابنى ! !

وأقبلت نسمات الســـحر ، واستيقظ المسلمون من نومهم بين ذكر وصلاة واستغفار ، وانتظمت الصفوف ، واشتبك جند الله مع بنى حنيفة فى أشد واقعة وأعنف ميدان . . وتخطى سيد دوس مقدمة المسلمين ومن خلفه ولده عمرو ، وظلا يقاتلان فى بأس واستماتة يطلبان من خلالها نعمة الشهادة . . وما لبث السيـــد الدوسى وهو

يطيح برقاب الشرك يميناً وشمالاً ، أن رماه رجل بسيفه المصلت رمية غادرة وهو يفر من أمام الطفيل يأساً ، فقطع منه العنق فخر شهيداً . . أما ابنه فقد ألهبته شهادة أبيه شدة فوق شدة ، فصار يطلب الشهادة لنفسه ، ولكنه لا ينالها . . فهو لم يجد أمامه من يقف من أعداء الله في سبيله وهو يحصد رقابهم حصداً ، حتى اجتمعت عليه في النهاية قوة من الأعداء ، ظل يكافحها وحده ، حتى قطعت يده ! !

وانجلت المعركة الحامية عن ذبح زعيم الشرك مسيلمة ، وقتل الجانب العظيم من قواته ، بعد فرار من استطاع منها أن يفر . . وتم النصر للمسلمين . .

وعاد عمرو بن الطفيل في مواكب النصر إلى المدينة ، وقد ترك أباه في روضة الشهداء من أرض اليمامة . . وما كاد يصل إلى داره حتى تجمعت عليه صنوف الألم مما كان من بقائه حياً ، بعد استشهاد أبيه ولحاقه بالنعيم الأبدي في جوار رسول الله ومن مضى إلى الدار الآخرة من أصحابه الأكرمين . . وراودته هواجس أضيق أن يطول به المقام في هذا الوجود وهو لا ينال الشهادة بعد أن عاد من ميدانها بيد واحدة ، فقد حسب أن لا يجد سبيله إلى الجهاد الصادق الكامل في ميدان الوغى مرة أخرى باليد الباقية . .

وانتقل خليفة رسول الله إلى دار البقاء ، وازداد عمرو بن الطفيل ضيقاً على ضيقه ، ووحشة فوق وحشته . . وانتقلت الخلافة إلى عمر ابن الخطاب ، . وأذن مؤذن الخليفة في الناس يطلب المدد ممن بقي من

أهل المدينة وما حولها ، لموافاة أبي عبيدة بن الجراح باليرموك من أرض الروم . . وعمرو بن الطفيل من خلال ذلك يخاف ألا يأذن له عمر بالخروج . .

وبينما هو في بيته إذ دعاه رسول الخليفة ، فوافاه ابن الطفيل على الفور في داره ، فوجد عنده رجالا من الأنصار يقتربون من طعام ، وما أن شاهده عمر حتى أفسح له بجواره ، ولكن عمرو لم يشأ أن يأكل . . فلقد كان يحب أن يدعوه الخليفة إلى القتال لا إلى الكراع . . وألح عليه ابن الخطاب ليأكل ، فجلس كارها إلى جواره من ناحية يده المبتورة ، ولم يلبث أن تنحى عن الطعام . . فقال له عمر :

— مالك !؟ لعلك تنحيت لمكان يدك ؟؟

— فأجاب عمرو وقال :

— أجل يا أمير المؤمنين !

فنظر إليه عمر بجسده كله ، وقال :

— والله لا أذوقه حتى تسوطه بيدك ، فوالله ما في القوم أحد بعضه في الجنة غيرك . . !

ونزلت الكلمة الكريمة على قلب عمرو ، فغمرته بالأمل في أن يخرج مع المسلمين إلى اليرموك . . وشعر ابن الخطاب بإحساس عمرو نحو الجهاد ، فأذن له بالخروج .

وانطلق ابن الطفيل انطلاق الأسد من حبل الأسر . . فكان في مقدمة

الصفوف . . والتقى المسلمون بالروم فى حرب ضروس ، خر من خلالها آلاف مؤلفة من الفريقين . . وازداد هجوم الأعداء شدة ، وصمد المسلمون على قلتهم ،وبدأوا يتساقطون واحدا إثر واحد . . ثم جاءت الريح لأنصار الله ورسوله . . فانقلب ميزان المعركة ، وتم النصر ، وارتفعت رايات الإسلام على أرض فلسطين كلها . . ودفع المسلمون ثمن النصر غاليا من أرواح شهدائهم ، ، وكان من بين أولئك الشهداء الأوفياء ، . فتى دوس وابن سيدها . . عمرو ابن الطفيل . .

◆◆◆

obeikandl.com